الكتب

« محمــــد »

كتاب توفيق الحكيم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

عملُ الأستاذ توفيق الحكيم فى تصنيف هذا الكتاب أشبهُ شيء بعمل « كريستوف كولمب » فى الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا ؛ لم يخلق وجودها ولكنه أوجدها فى التاريخ البشرى ، وذهب اليها فقيل جاء بها إلى العالم ، وكانت معجزته أنه رآها بالدين التى فى عقله ، ثم وضع بينه وبينها الصبرَ والمماثاةَ والحذق والعلم حتى انتهى اليها حقيقة .ماثلة

قرأ الأستاذ كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل ، بقريحة غير قريحة المؤرخ ، وفكرة غير فكرة الفقيه ، وطريقة غير طريقة المحدِّث ، وخيال غير خيال القاصّ ، وعقل غير عقل الزندقة ، وطبيعة غير طبيعة الرأى ، وقصد غير قصد الجدَل ؛ فخلص له الفن الجميل الذى فيها إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة ، وأمرَّها على إحساسه الشاعر المتوثب ، واستلَّها من التاريخ بهذه القريحة وهذا الاحساس كما هى فى طبيعتها السامية متجهةً إلى غرضها الالّهى محققةً عجائبها الروحانية المعجزة

وقد أمدته السيرة بكل ما أراد ، وتطاوعت له على ما اشتهى ، ولانت فى يده كما يلين الذهب فى يد صائغه ؛ فجاء بها من جوهرها وطبيعتها ليس له فيها خيال ولا رأى ولا تعبير ، وجاءت مع ذلك فى تصنيفه حافلة بأبدع الخيال ، وأسمى الرأى ، وأبلغ العبارة ؛ إذ أدرك بنظرته الفنية تلك الأحوال النفسية البليغة ، فنظمها على قانونها فى الحياة ، وجمع حوادثها المدوَّنة فصوَّرها فى هيئة وقوعها كما وقعت ، واستخرج القصص المرسَلَة فأدارها حواراً كما جاءت فى ألسنة أهلها ؛ وبهذه الطريقة أعاد التاريخ حياً يتكلم وفيه الفكرة وملائكتُها وشياطينُها ، وكشف ذلك الجمال الروحانى فكان هو الفن ، وجلا تلك النفوس العالية فكانت هى الفلسفة ، وأبقى على تلك البلاغة فكانت هى البيان . كانت السيرة كاللؤلؤة فى الصدفة ، فاستخرجها لجمالها اللؤلؤة وحدها

* * *

إن هذا الكتاب يفرض نفسه بهذه الطريقة الفنية البديعة ، فليس يمكن أن يقال إنه لا ضرورة لوجوده ، إذ هو الضرورىّ من السيرة فى زمننا هذا ، ولا يُغْتَمَزُ فيه أنه تحريف وتزوير وتلفيق ، إذ ليس فيه حرف من ذلك ؛ ولا يردُّ بأنه آراء يخطئ المخطئُ منها ويصيب المصيب ، إذ هو على نص التاريخ كما حفظته الأسانيد ؛ ولا يُرمى بالفثاثة والركاكة وضعف النسق ، إذ هو فصاحة العرب الفصحاء الخُلَّص كما رُويت بألفاظها ؛ فقد حصنه المؤلف تحصيناً لا يُقتحم ، وكان فى عمله مخلصاً أتم الاخلاص ، أميناً بأوفى الأمانة ، دقيقاً كل الدقة ، حَذِرا بغاية الحذر

ومن فوائد هذه الطريقة أنها هيأت السيرة للترجمة إلى اللغات الأخرى فى شكل من أحسن أشكالها برغم هذا الزمن على أن يقرأ بالاعجاب تلك الحكاية المنفردة فى التاريخ الانسانى ؛ كما أنها قرّبت وسهلت لجمات السيرة فى نصها العربى كتاباً مدرسياً بليغاً بلاغة القلب واللسان ، مربياً للروح ، مرهفاً للذوق ، مصححاً للملكة البيانية

وحسبُ المؤلف أن يقال بعد اليوم فى تاريخ الأدب العربى : إن ابن هشام كان أول من هذّب السيرة تهذيباً تاريخياً على نظام التاريخ ، وأن توفيق الحكيم كان أول من هذبها تهذيباً فنيا على نسق الفن

مصطفى صادق الرافعي